

الدرس الثامن والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "من رأى منكم منكراً فليغيره
بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان "
رواه مسلم

الشرح..

هذا الحديث العظيم هو من جوامع كلم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وهو في باب عظيم من
الدين وجانب رفيع من جوانبه وهو جانب إنكار المنكر .
وإنكار المنكر مع الأمر بالمعروف هو من خيرية هذه الأمة { كنتم خير أمة أخرجت للناس
تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر } وهو سبب صلاح المجتمع ، وسبب فلاح الناس وسعادتهم
في دنياهم وأخراهم ، بل هو يُعد صمام أمان للمجتمع من الشرور والبلايا والفتن ، ولا تزال
الأمة بخير مادامت محافظة على هذه الخصلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي من
أسباب كثرة الخير في المجتمع وانحسار الشر ، بينما إذا قل في المجتمع الأمر بالمعروف
الناهون عن المنكر ؛ ضعف في المجتمع جانب الخير وكثرت الشرور والفتن ؛ ولهذا من نعم الله
سبحانه وتعالى على المجتمع أن يكون فيه أمرون بالمعروف ناهون عن المنكر ، وهو من
أسباب سعادة الناس وفلاحهم في الدنيا والآخرة .

وهذا الحديث بيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم مراتب تغيير المنكر ، وأن مراتب التغيير الثلاثة التي ذكرها
عليه الصلاة والسلام كلها من الإيمان ، وكلها من خصاله وشعبه ؛ فقلوه عليه الصلاة والسلام في آخر الحديث "وذلك
أضعف الإيمان" هذا يفيد أن التغيير بمراتبه الثلاث من الإيمان لكن أضعف شيء في الإيمان هو

التغيير في القلب ؛ ولهذا ينبغي أن يُفهم أن مراد النبي ﷺ بقوله " وذلك أضعف الإيمان " أي في هذا الباب وهو باب التغيير ؛ لأن رُتب الإيمان في جانب تغيير المنكر ثلاث رُتب ، وأضعف هذه الرتب رتبة التغيير بالقلب ، وأعلى منها التغيير باللسان ، وأعلى منه التغيير باليد .

فأضعف هذه الرتب هي رتبة التغيير بالقلب ؛ ولهذا في الحديث الآخر قال " فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " فقلوه " وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " أي في هذا الباب وهو باب تغيير المنكر ، إذ إن مراتب التغيير الداخلة في شعب الإيمان وخصاله ثلاث وهي التغيير باليد وهو أرفع الأنواع ، ثم التغيير باللسان ، ثم التغيير بالقلب وهو أضعفها .

والمراد بالتغيير بالقلب هو كراهية المنكر ، وأن يكون قلب العبد مبغضاً له كارهاً له غير محب له يتمنى زواله وعدم وجوده ؛ ولهذا لا يستقيم مجالسة أرباب المنكرات ومؤانستهم والأنس بالجلوس معهم وهم يفعلون المنكر ويقول أنا كاره له بالقلب !

فالكراهية تقتضي نفور الإنسان من المنكر وبغضه له وعدم ارتياحه لوجوده وتجنّبه لزواله وهذه أضعف الرتب التي هي مراتب التغيير الداخلة في مسمى الإيمان فهذا أضعفها .

" وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " : أي ليس وراء ذلك التغيير بهذه الرتب الثلاث مرتبة تدخل في شعب الإيمان .

قال " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده " : المراد من اطلع أو علم بالمنكر ، وليس من شرط ذلك رؤيته بالعين ؛ فلو لم يره وسمع به ، أو لم يكن مبصراً وعلم به ؛ فإن الإنسان مطالب بالتغيير قدر استطاعته ..

وقد جعل النبي ﷺ مراتب تغيير المنكر في هذا الحديث ثلاث مراتب ؛ وبدأ بالأرفع شأناً ثم الأقل ثم الأقل ؛ فبدأ أولاً بالتغيير باليد وذلك بأن يمنع الإنسان بيده وجود المنكر أو أن يُتلف الآلات . آلات اللهو المحرمة مثلاً . التي يُفعل بها المنكر .

وهذا التغيير الذي هو باليد ليس لكل أحد وإنما لمن كان هذا الأمر باستطاعته ؛ وهذا من صلاحيات ولي الأمر لأنه هو الذي بيده السلطة سواء ولي الأمر أو من يُنييه ولي الأمر ، أو في ولاية الإنسان الخاصة مثل بيت الإنسان الذي هو ولي فيه وله سلطة فيمنع ولده إذا أحضر شيئاً من المنكرات أتلفها لأن له سلطة في بيته ، لكن التغيير باليد من عموم الناس

لأفراد المجتمع هذا من أسباب شيوع الفوضى وانتشار الشر وكثرة العدوان ، ولا تنتظم مصالح الناس بذلك ، لكن من كانت له ولاية أو أُنابه الوالي في هذا الباب فإنه إذا غيّر بيده لا يجزؤ أحد أن يمانع أو يترتب على ذلك مفسد لأن التغيير باليد حصل ممن بيده السلطة أو ممن أُنابه من بيده الولاية والسلطة .

فإذا كان الإنسان باستطاعته أن يغير بيده فعل وأيضاً يراعى في هذا الباب قاعدة الشريعة في جلب المصالح ودرء المفسد ؛ فإذا كان التغيير باليد يترتب عليه منكرٌ أكبر وشرٌ أعظم لا يجوز أن يغير ، وإذا كان يترتب عليه وجود منكر مماثل له أيضاً لا يغير .

قال " فإن لم يستطع فبلسانه " : أي إذا لم يكن باستطاعته التغيير باليد ينكر بلسانه ويبين لمن يفعل المنكر بأن هذا منكر وأنه محرم ، ويبين له عدم جواز ذلك ويذكره بالآيات والنصوص مرغباً ومرهباً ، ويكون أيضاً رفيقاً في إنكاره ، مثل ما قال بعض أهل العلم " لا يغير المنكر بالمنكر " وإنما يغير بالرفق وباللين وبالكلمة الحسنى وبالوعظ وبالتذكير بآيات الله .

ويدخل تحت التغيير باللسان الكتب العلمية التي يكتبها أهل العلم والبصيرة بدين الله نهيًا عن المحرمات والمنكرات ، وكذلك فتاوى أهل العلم التي فيها النهي عن المحرم والنهي عن المنكر ، وكذلك بالخطب والمواعظ والمحاضرات والدروس العلمية ، ذكر المنكر على وجه التحذير منه وبيان خطورته وبيان أضراره وذكر الدلائل على ذلك ؛ فهذا داخل تحت قوله عليه الصلاة والسلام " فمن لم يستطع فبلسانه " ؛ فالتغيير بالقلم هو من التغيير باللسان ، بالكتابة المشتملة على النصيح والبيان وذكر الدليل من أهل العلم والبصيرة بدين الله تبارك وتعالى .

ولهذا نرى الأئمة الأكابر كتبوا كتباً في المناهي وفي الكبائر وفي المحرمات إجمالاً وتفصيلاً ، نصحاً للناس وتحذيراً من المنكرات وبياناً لأخطارها .

قال " فإن لم يستطع فبقلبه " : والتغيير بالقلب هو بكراهية المنكر وأن يكون القلب مبغضاً لوجوده متمنياً لزواله .

" وذلك أضعف الإيمان " : وهذا من الدلائل الواضحة الصريحة في أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف ، يزيد بفعل الطاعات وينقص بارتكاب المعاصي والخطيئات ، يزيد ويتفاوت أهله فيه بحسب قيامهم بشعب الإيمان ، وينقص بحسب تقصيرهم فيها ؛

ولهذا ذكر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ضعف الإيمان فقال " وذلك أضعف الإيمان " فهذا دليل واضح على أن الإيمان يزيد وينقص ، والزيادة جاء التصريح بها في القرآن في آيات عديدة منها قوله تعالى { وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون } ، وقال جل وعلا { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم ءاياته زادتهم إيماناً وعلى ربحهم يتوكلون } والآيات في هذا المعنى عديدة .

والسنة جاءت مصرحة بالنقص والضعف؛ كما في هذا الحديث وكما في الصحيحين في قوله عليه الصلاة والسلام " ما رأيت من ناقصات عقل ودين " ، وقوله " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير " ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وجاء عن عمير بن حبيب الخضري رضي الله عنه أنه قال " الإيمان يزيد وينقص قيل وما زيادته ونقصانه ؟ قال إذا ذكرنا الله وسبحناه وحمدناه زاد وإذا غفلنا نقص "؛ فالإيمان له أسباب تزيده وتقويه وله أسباب تضعفه وتنقصه وتوهيه .

وتغيير المنكر باليد واللسان كما أنه يُعد زيادة إيمان في من قام بذلك فهو أيضاً يُعد سبباً لصلاح أمور الإيمان في المجتمع لأن من أسباب زيادة الإيمان في المجتمع وانحسار المنكرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإذا وُجد في المجتمع آمر بالمعروف ناهون عن المنكر كان ذلك من أسباب صلاح المجتمع .

وهنا أيضاً نلاحظ أن هذه الوظيفة - وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - هي وظيفة وعمل كَلَّف به النبي صلى الله عليه وسلم كل مسلم ، كلٌ حسب استطاعته { لا يكلف الله نفساً إلا وسعها } لكن لا بد أن يكون عند المسلم حظ من ذلك ، هذه وظيفة وعمل كَلَّف به النبي صلى الله عليه وسلم كل مسلم كلٌ حسب استطاعته . .

وإذا قال قائل : كيف يُجمع المرء بين هذا الحديث وبين الحديث المتقدم "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ؟ لأن بعض أصحاب المنكرات إذا أنكر عليهم منكر قال له "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " وإن لم يذكر الحديث قال ما معناه كأن يقول له : هذا ما يعنيك ، هذا يخصني ولا يعنيك ...

والجواب : لا تعارض بين الحديثين ، وقد سبق أن مرَّ معنا معنى الحديث وأن المراد بقوله عليه الصلاة والسلام "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " أي بضابط الإسلام لا بضابط الهوى ؛ لا مُحْكماً فيه الهوى وإنما المُحْكَم فيه الإسلام ، ومما جاء به الإسلام التوجيه إلى الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر ، فكل مسلم يعنيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فهو داخل فيما يعني المسلم وليس هو مما لا يعني المسلم بل كل مسلم يعنيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدليل قوله صلى الله عليه وسلم "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده الحديث "

قال الشيخ عبد المحسن العباد في شرح الحديث :

[الأول : هذا الحديث مشتمل على درجات إنكار المنكر وأن من قدر على التغيير باليد تعين عليه ذلك وهذا يكون من السلطان ونوابه في الولايات العامة ويكون أيضاً من صاحب البيت في أهل بيته في الولايات الخاصة ورؤية المنكر يحتمل أن يكون المراد منها الرؤية البصرية أو ما يشملها ويشمل الرؤية العلمية ، فإذا لم يكن من أهل التغيير باليد انتقل إلى التغيير باللسان حيث يكون قادراً عليه وإلا فقد بقي عليه التغيير بالقلب وهو أضعف الإيمان وتغيير المنكر بالقلب يكون بكراهة المنكر وحصول الأثر على القلب بسبب ذلك ولا تنافي بين ما جاء في هذا الحديث من الأمر بتغيير المنكر وقول الله عز وجل { يا أيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم } ؛ فإن المعنى إذا قمتم بما هو مطلوب منكم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أدبتم ما عليكم ولا يضركم بعد ذلك ضلال من ضل إذا اهتديتم ، ولشيخنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عند الكلام على هذه الآية في أضواء البيان تحقيقات جيدة في مسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المناسب الرجوع إليه للاستفادة منها] .

الشرح..

هذا الحديث مشتمل على درجات إنكار المنكر وأن من قدر على الانكار باليد تعين عليه ذلك ومن المعلوم أن الذي عنده القدرة على التغيير باليد بدون أن يترتب على ذلك مفسد ولي الأمر أو من ينوبه ولي الأمر في ذلك وكذلك في الولايات الخاصة مثل الإنسان في بيته بمنع وجود المنكرات في البيت وإتلاف ما وجد منها في البيت حفاظاً على مصلحة البيت وبعده عن المنكرات وأسباب غضب الله تعالى

فإذا لم يستطع ذلك انتقل إلى التغيير باللسان إذا كان قادراً على ذلك أما إذا لم يكن عنده قدرة على التغيير باللسان فإنه ينتقل إلى ما بعده وهو التغيير بالقلب وهو أضعف مراتب الإيمان

و هذا الحديث ليس بينه وبين قوله تعالى { يا أيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم } تعارض ؛ لأن المراد بالآية إذا قمتم بما هو مطلوبٌ منكم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أدبتم ما عليكم ولا يضركم من ضل بعد ذلك ؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى في سورة الأنفال { واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة } لأن المنكرات بدون سعيٍ في التغيير كلٌ حسب استطاعته في التغيير ؛ هذا يؤدي إلى فتنة لا تختص بضررها الذين ظلموا بل تعم الجميع

والنبي عليه الصلاة والسلام ضرب في السنة لهذا مثلاً ؛ وهي قصة السفينة عندما يكون في أعلاها أناس وفي أسفلها أناس ؛ فلو أن الذين في أسفلها قالوا : بدل أن كل ما احتجنا إلى الماء نصعد إلى أعلى السفينة ثم نسحب الماء من أعلاها بإنزال دلو أو نحوه في الماء ؛ نخرق لنا خرقاً في أسفلها ويأتينا الماء من قريب بدون أن نتعب ، فالذين في أعلى السفلى إن تركوهم هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً؛

وهذا مثلاً عظيمٌ جداً في بيان الثمرة العظيمة المباركة التي تترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يكون بذلك من صلاحٍ في المجتمعات ، وأن المجتمع الذي يقل فيه هذا الباب - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - تشيع فيه المنكرات ويعظم فيه الشر ويكثر فيه الفساد ، ثم قد يصاب المجتمع بفتنة وعقوبة تشمل الجميع ، تشمل الأخضر واليابس ، ولهذا يحتاج المجتمع ليبقى صلاحه ولينحسر الفساد والشر فيه أن يوجد فيه من يقوم بذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المنكر .

[ثانياً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن به صلاح العباد والبلاد .

الثاني: أن تغيير المنكر يكون على درجات من قدر على شيء منها تعيّن عليه ذلك.

ثالثاً : التفاوت في الإيمان وأن منهم القوي والضعيف والأضعف .

..*

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه "

رواه مسلم

الشرح ..

هذا الحديث من أجمع الأحاديث وأعظمها شأنًا في باب تحقيق الأخوة الإيمانية والقيام بمقتضاياتها وموجباتها ، وقد قال الله جل وعلا في القرآن الكريم { إنما المؤمنون إخوة } ، وفي هذا الحديث قال عليه الصلاة والسلام " وكونوا عباد الله إخواناً " . فالإيمان يُثمر في أهله أخوةً وتآخياً وتآلفاً وحباً عظيماً وصلّة وثيقة لا يمكن أن تتحقق بين الناس بأي رابطة أخرى أيّاً كانت . فالإيمان إذا وُجد في المجتمع صحيحاً قوياً قوياً أوجد في أهله رابطةً وثيقة وصلّة عميقة ، وحباً في الله جل وعلا .

وهذه الرابطة بين أهل الإيمان هي رابطة مستمرة غير منقطعة في الدنيا والآخرة ، أما الصلّات في غير الله فهي منقطعة مهما كانت قوتها { الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين } وقال جل وعلا { وتقطعت بهم الأسباب } أي أسباب الأخوة والصلّة ؛ ولهذا كل علاقة وكل تآخٍ مآله إلى التصرم والانقطاع إلا التآخي في الله . الأخوة الإيمانية هي أعظم صلة ، والرابطة الإيمان هي أعظم رابطة ، وهي أعظم من رابطة النسب وأوثق ؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى { فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون } ، وقال في الحديث " ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه " .

فالأخوة الدينية لها ثمرات عظيمة ونافعة وكبيرة في الدنيا والآخرة ، وأخوة النسب إن لم يكن معها الدين فهي منقطعة وزائلة إما أن تزول في الدنيا أو تزول في الآخرة ؛ ولهذا فإن الأخوة

في الدين أرفع وأعلى من الأخوة في النسب وقد قال تعالى { لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا ءابائهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم } فإذا انتفت الأخوة الدينية انتفى التأخي حتى ولو كان أخاً للإنسان من النسب ولزم وجود البغض وعدم الحب ولو كان شقيقاً للإنسان ؛ ولهذا قال أهل العلم "الأخوة الدينية أعظم من الأخوة الطينية" . وهذه الأخوة الدينية لها مقتضيات ولها موجبات وكلما قويت هذه الأخوة قويت مقتضياتها وكلما ضعفت ضعفت مقتضياتها ؛ ولهذا في سورة الحجرات لما ذكر الله عز وجل الأخوة الإيمانية ذكر جملةً من مقتضياتها قال { إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون } يا أيها الذين ءامنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءً من نساءٍ عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين ءامنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله توابٌ رحيمٌ لاحظ لَمَّا ذكر الأخوة ذكر المقتضيات ؛ لا يسخر ، لا تنابزوا ، لا يغتب بعضكم ، اجتنبوا كثيراً من الظن ، لا تجسسوا... ؛ هذه كلها مقتضيات الأخوة ؛ فهي جل وعلا عن الأمور التي تُضعف الأخوة وتنقصها وربما تؤدي إلى ذهابها ؛ ولهذا الأخوة الإيمانية إذا قويت في العبد وتحققت فإن هذه المقتضيات التي ذكرها الله عز وجل لا بد أن توجد ، فإن لم توجد هذه المقتضيات فهذا أمانة ضعف الإيمان ودليل نقصه .

نضير هذه الآيات هذا الحديث ؛ ذكر النبي ﷺ الأخوة ؛ قال "كونوا عباد الله إخواناً" ، وأيضاً ذكر مقتضياتها كما في الآية ؛ قال ﷺ " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً " ؛ ثم قال " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره .. " ؛ فهذه كلها مقتضيات الأخوة ، يجب على المسلم أن يحققها طاعةً لله جل وعلا وطلباً لمرضاته سبحانه . وهذه التي دُكرت في الآيات ودُكرت في هذا الحديث أمثلة لمقتضيات الأخوة وليس حصراً لها ؛ لكن فيه بيان أمثلة وأمور جامعة ترجع إليها الأمور الأخرى ؛ ولهذا يجب على المسلم أن يهتم بأمر الأخوة الإيمانية ويُعنى بها ، ويسعى جهده في تحقيق مقتضياتها تقويةً لإيمانه وطاعةً لربه تبارك وتعالى ، ولا ينبغي للإنسان أن يُجاري أحوال الناس ، وهذه من الآفات في كثير من المجتمعات ؛ تجد الإنسان يطغى ويغلب عليه مسaire المجتمع ومجاراته ، وبعض الناس ربما يلتمس لنفسه مبرراً في بقاءه على خصال مذمومة شرعاً نهي الله عنها أو نهي عنها رسوله ﷺ

وسلام بقوله أن هذا عمّ في المجتمع وانتشر ولو تركته لكنت وحيداً في المجتمع .. أو نحو ذلك ؛ وهذا من الخطأ ؛ بل يجب على المسلم أن يحقق مقتضيات الأخوة الإيمانية في مجتمعه وإن قصّر فيها الناس ، ويفعل ذلك طاعة لله وطلباً لمرضاته ، ليس الشرع في هذا الباب أن يكيل الإنسان الصاع صاعين ؛ الشرع جاء باحتمال الأذى ، ودفع الشر ، والدرة بالتي هي أحسن ، وأن لا يكون من الإنسان شر وأذى تجاه الآخرين حتى وإن كانوا هم على خلاف ذلك ، وعندما يحدث عند الإنسان خلل في هذا الباب يحرم من حقوق الأخوة ومقتضياتها شيئاً كثيراً ؛ وهذا أكّد عليه لأنه يُعد خلل في كثير من المجتمعات ؛
فمثلاً لو أن شخصاً أكثر من مرة حصل له أن عُشّ في البيع في أكثر من مرة ؛ فيقول له أحدهم: لقد غشوك عشرات المرات ؛ فما المشكلة إذا غشيت أنت مرة واحدة ؟!
فتبدأ النفس تُسهّل المحرمات والمنكرات والمخالفات وخوارم الأخوة مجارة للمجتمع ومسايرة له ؛ وهذا من الغلط .

فالواجب على المسلم أن يحقق الأخوة الإيمانية ومقتضياتها وإن أخلّ بها الآخرون ، فإذا أدبت ماعليك سلمت من الإثم وفزت بالثواب ، والذي لك تجده عند الله سبحانه وتعالى ، أما إذا شارك الإنسان الناس ولو كان المجتمع بأسره ؛ إن شاركهم في هذه المخالفات بآء بالإثم كما بآءوا هم به ؛ ولهذا يجب على الإنسان أن يحقق مقتضيات الأخوة الإيمانية وإن قصّر فيها الآخرون ؛ ولنفرض أن إنساناً في مجتمع يكتر فيه الحسد ؛ لا عليه ؛ بل هو في نفسه يتجنب الحسد طاعة لله وبعداً عن هذا الأمر المحرم المنهي عنه ، ولا عليه من وجود حسد بكثرة في مجتمعه ، ولن يضره شيء إلا شيء كتبه الله له ، ولا يقابل السوء بسوء ، ولا يقابل المنكر بالمنكر ، ولا يقابل الشر بالشر ؛ بل يكف عن ما نهاه الله عنه وإن لم يكن كثيراً من مجتمعه على هذا الحال وإن لم يتق الله الناس فيه فاتق الله أنت فيهم ، ولازم تقوى الله سبحانه وتعالى ، ولا تبأشر المخالفات مع المجتمع لكثرة ما يفعل أهل المجتمع من مخالفات ؛ ولهذا يأتي هذا الحديث مؤكداً على ما به صلاح المجتمع واستقامة أحوال الناس ، وأن الواجب على كل مسلم في خاصة نفسه أن يحقق هذه الخصال التي هي مقتضيات الأخوة الإيمانية ، ولا يلتفت إلى حال المجتمع هل هم كذلك فأعاملهم بمثل هذه المعاملة أم هم ليسوا كذلك فلا أعاملهم بها ، فهذا من الخطأ ، وهذا من أكبر أسباب المخالفات التي تكثر في المجتمعات

؛ تجدد الإنسان إن كثر في المجتمع الكذب صار من أهله مداراة لأهله ، إن كثر الغش صار من أهله مداراة ومسايرة لحاله .. ، وإذا كان المجتمع كله بهذا التفكير فمتى يصلح المجتمع ومتى يوجد القدوات الذين على أيديهم يكون الصلاح ويكونون أسباب هداية المجتمع ؟

هذا جانب مهم يجب مراعاته بين يدي قراءة هذا الحديث فالإنسان يقرأ هذا الحديث يصلح نفسه بتحقيق هذه الخصال المباركة العظيمة ، ويطلب بتحقيق ذلك ثواب الله سبحانه وتعالى ولا يلتفت إلى حال مجتمعه هل هم على ذلك أم لا ؛ بل هو يفعل هذه الأمور ويحقق ما طُلب منه في هذا الحديث طاعةً لله وطلباً لثوابه سبحانه وتعالى .

قال عليه الصلاة والسلام " لا تحاسدوا " : والخطاب في الحديث لأهل الإيمان مبيناً فيه صلوات الله وسلامه عليه مقتضيات الإيمان وحقوقه ومتطلباته .

" لا تحاسدوا " : أي لا يحسد بعضكم بعضاً ، والحسد أمرٌ في القلب ، وقد يترتب عليه آثارٌ وتوابع له في الجسد وإلا أصله ومنبعه القلب .

والحسد هو تمني زوال النعمة عن الآخرين ؛ ولهذا قيل عن الحاسد أنه عدوُّ نعمة الله على عباده ؛ فإذا رأى نعمةً أنعم الله بها سبحانه وتعالى على عبد من عباده تمني زوالها . وبعض أهل العلم يرى أن الحسد معناه أوسع من هذا ؛ أوسع من تمني زوالها ، بل يعدون كراهية النعمة للآخرين حسداً وإن لم يتمنى زوالها ؛ يعني إذا رأى في أحد إخوانه نعمةً أنعم الله بها عليه ؛ كره ذلك

والذي يكره النعمة التي أنعم الله بها سبحانه وتعالى على الآخرين ؛ فيه عداوة لنعمة الله على عباده والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ولا ضير عليك وليس بحسد أن تتمنى أن يكون لك مثله أو أحسن منه وأفضل ؛ فلا ضير عليك ؛ فهذه غبطة لا بأس به ، وقد جاء في الحديث قال " لا حسد إلا في اثنتين " والمراد لا غبطة .

وإذا زاد على ذلك - على الحسد - زاد الإثم بحسب ما زاد على ذلك ، فإذا ترتب على تمني زوال النعمة الذي امتلأ به قلبه مباشرة الأسباب التي يكون بها زوال النعمة ؛ فهذه المباشرة للأسباب كل ما زاد منها زاد إثمه في هذا الباب ، وزادت عقوبته عند الله سبحانه وتعالى .

والحسد يكون في أمور الدين ويكون في أمور الدنيا ؛ قد يحسد الإنسان الآخر على صيامه وعلى صلواته ، قد يحسده على طلب العلم ، قد يحسده على المال ، وقد يحسده على تجارته ، قد يحسده على حذقه ونباهته ..

وغالباً ما يقع الحسد بين الأقران في الشيء الواحد ؛ إذا كانوا عملوا في تجارة أو في صناعة ما؛ ثم برز أحدهم أقرانه في ذلك وفاقهم . كانوا يمشون سوياً ثم فتح الله لأحدهم باب رزق فاقهم فيه . فإن لم يُسَلِّمهم الله سبحانه وتعالى تمتلئ قلوبهم حسداً لهذا الشخص ..

كذلك طلب العلم ؛ قد يقع بين طلبة العلم حسد في هذا الباب ؛ مثل شخص ما كان له اهتمام بطلب العلم ، ثم يأخذه شخص ويرغبه ويحثه على الطلب ، ويقبل على الطلب ؛ وإذا به يفوق هذا الذي دله على طلب العلم ويسبقه سبقاً بعيداً ، والفضل بيد الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء .. ؛ فإن لم يسلمه الله جل وعلا حسده على هذا الذي فاقه فيه ؛ ولهذا الغالب أن الحسد يقع بين الأقران ؛ فما ترى نجاراً - مثلاً - يحسد طالب علم ، أو طالب يحسد نجاراً ، لأن هذا في مجال وهذا في مجال ، لكن نجار يحسد نجار ، وطالب علم يحسد طالب علم ، فغالباً يتولد الحسد في النفوس إذا ضعف الإيمان بين الأقران والمتماثلين في المجال الواحد أو الباب الواحد فينشأ الحسد .

ولهذا يحتاج المسلم إلى أن يروض قلبه على عدم كراهية نعمة الله ؛ فالفضل فضل الله يؤتيه من يشاء ، فيروّض نفسه على عدم الكراهية ، فاقني هذا في العلم وتفوّق في الحفظ والطلب ؛ فالمقام الإيماني يقتضي الفرح والسرور ؛ فهذا كان معرضاً عن الدين وأصبح طالب علم جيد ؛ فالمقام يقتضي الفرح بذلك لعله يكون إماماً من أئمة المسلمين ، لعل الله سبحانه وتعالى ينفع به العباد ؛ فلم أملأ قلبي بكراهية لما هو عليه ؟ وسبحان الله حتى يتبين الأمر بشكل أوضح: فهذا الشخص الذي فاق صاحبه و كان ضائعاً وكان لا يشتغل بالعلم لو قيل للإنسان : هب أن هذا الشخص على ضياعه السابق ماذا تتمنى له ؟ الجواب : أتمنى أن يكون طالب علم ، ولو قيل لك هل تتمنى أن يكون طالب علم قوي ؟ الجواب نعم ، لكن لما وُجد وجاءت المقارنة وفاقه يدخل أحياناً ويتسرب الحسد إلى القلب .

فيحتاج المسلم أن يُعوّد نفسه على الرضا بما قسم الله سبحانه وتعالى والقناعة بذلك ، وأن يستشعر أن الفضل بيد الله والمنة لله سبحانه وتعالى وهو المان المتفضل ؛ فلم أحسد

الشخص على إيمانه وصلاحه ؟ لما أحسده على طلبه للعلم وفلاحه فيه ؟ لما أحسده على نفعه للناس وإفادته للآخرين ؟ ولما أحسد هذا على ما أنعم الله به عليه من مال وما ينفق في وجوه الخير والبر ؟ وما هي الثمرة التي أرجوها بذلك عندما أملأ قلبي حسداً أو كراهية لذلك ؟ فليس هناك ثمرة ؛ بل هي نارٌ تغلي في قلب الحاسد ولا ثمرة له ؛ ولهذا شُبِّه الحاسد بالنار ؛ تأكلُ بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله ؛ فتجد هذه السقائم والأمراض التي في قلب الحاسد تعطل هو في نفسه عن الخير وعن أبوابه ولم يستفد في ذلك ، بينما إذا كان سليم الصدر تجاه إخوانه فرحاً لهم بالخير ، حامداً لله سبحانه وتعالى على ماتفضل به عليهم ، ولا مانع أن أتمنى أن أكون أفضل من الآخرين وليس هذا من الحسد ، لا مانع أن يتمنى الإنسان أنه أفضل أو يتمنى أن ولده أفضل من ولد فلان لكن إن فاق ولد فلا ولدي وسبقه لماذا أجعل في قلبي كراهية ولماذا أتمنى عن ابنه أن يزول هذا الذي عنده ، ما الثمرة التي أرجوها في الدنيا والآخرة ؟ هب أن الذي تمنيته في ذلك الابن أن يزول عنه زال ؛ ما الذي حصلته ؟ وما الذي استفدته ؟ لا دين ولا دنيا ولا آخرة غير أنه إثم على الإنسان .

فالحسد مرض خطير وداء فتاك إذا وُجد في الإنسان أضر به ، وربما كان آفة في المجتمع ، وكم من إنسان قتل آخر وأراق دمه حسداً له ، وكم من آخر اعتدى على غيره بماله حسداً له ، كم من الجنايات التي هي ثمرة للحسد وأثر من آثاره .

والحسد من أخص صفات اليهود - شر الناس - ، وقد نعتهم الله بأنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؛ فلماذا ينقل الإنسان نفسه نقلةً بعيدة ؟ يجعل نفسه في موضع يكون فيه عدواً لنعمة الله تبارك وتعالى ، ومنساقاً وراء ما يمليه عليه الشيطان ؛ الشيطان حسد بني آدم على ما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليهم ، وحسد أباهم آدم على ما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليه ؛ ولهذا الحسد فيه شبه من الشيطان وشبه بأعداء الدين ، فيحتاج المسلم أن يجاهد نفسه على البعد من هذه الآفة .

قال " ولا تناجشوا " : النجش هو الزيادة في السلعة لتنفيـع شخص أو إضرار بآخر ؛ فإذا كان يزيد في السلعة وليس له غرض في الشراء لكن لكون السلعة لأحد أصدقائه وزملائه فيزيد فيها ليكون ربح صديقه أكثر ، أو يزيد في السلعة وليس له غرض في الشراء ولكنه يريد أن يضر بأحد الذين أرادوا شراء هذه السلعة ؛ فهذا محرم وهو من نقص الإيمان وضعفه ؛ وإلا

هؤلاء كلهم إخوانك وكلهم لهم عليك حقوق ؛ فلماذا تُنقَعُ آخر وتضر بآخر ؟ فكلهم إخوانٌ لك {إنما المؤمنون إخوة} " وكونوا عباد الله إخواناً " يجمعك وإياهم الإسلام ؛ فلماذا هذا النجش ؟ ولهذا وجوده نقص في الإيمان وضعف فيه .

قال " ولا تباغضوا " : أي لا تفعلوا ما يوجد البغضة بينكم ، والبغضة لا توجد إلا إذا وجدت أسبابها ؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن التباغض نهى عن أسباب التباغض وموجباته ، وإذا تفكر المسلم يجد أن وجود البغضة بين المسلمين من ورائها أسباب وعوامل ودوافع ، والنهي عن الشيء نهى عن أسبابه ووسائله وعوامله ؛ ولهذا فإن نهى النبي ﷺ عن التباغض هو نهى عن فعل كل أمر يفضي بالناس إلى التباغض ؛ ولهذا يدخل تحت قوله " لا تباغضوا " النهي عن أمور كثيرة ، بل هو يشمل كل أمر يفضي بالناس إلى التباغض ، أن يبغض بعضهم بعضاً .

ولهذا نقل النووي في شرحه لهذا الحديث عن بعض أهل العلم أنه قال : " في هذا الحديث نهى عن البدعة " لأن وجودها يوجد البغضة ؛ ولهذا قال أهل العلم عن البدعة أنها تفرّق كما أن السنة تجمع وتؤلف ، إذا شاقَّ الإنسان وجانبه واشتغل بمحدثات الأمور والبدع ؛ فيترتب على ذلك أن أهل الحق والسنة لن يرضوا بذلك ، ولن يقرأوها عليه وسيقولون أن هذا خطأ ؛ فإن لم ينشر صدره لقبول ما يبينونه له من الحق والسنة وجدت هذه البغضة ، وتجدد هو نفسه يبغض أهل السنة وأهل الحق وينفر منهم ، وسبب هذا البغض الذي قام في قلبه لأهل الحق وأهل السنة هو فعله للبدعة وارتكابه لها ؛ ولهذا نهى ﷺ عن التباغض هو نهى عن فعل كل أمر يفضي بالناس إلى وجود التباغض بينهم ، يشمل النهي عن العدوان على الآخرين والإضرار بهم والاعتداء عليهم والنيل من أعراضهم والهمز واللمز والسخرية بالآخرين ، قال لا يسخر قوم من قوم ثم قال ولا نساءً من نساء ، قال ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب ، إذا وجدت السخرية والهمز واللمز من بعض الناس تجاه الآخرين ما الذي يترتب على ذلك ؟ ألفة ومحبة أم بغض وعداوة ؟ قوله " ولا تباغضوا " فيه النهي عن كل أمر يفضي إلى وجود البغضاء بين المسلمين ؛ فكل أمر يؤدي للبغضاء ابتعد عنه

قال " ولا تدابروا " : هذا فيه النهي عن إعراض الأخ عن أخيه وأن يعطيه قفاه وظهره فيبقى الأخ وأخاه متقاطعين متهاجرين متدابرين ، وقد جاء في أحاديث كثيرة النهي عن ذلك وأن

المسلم لا يحق له أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، إذا كان بينهم خلاف وسوء تفاهم في أمور دنيوية أو إشكالات خاصة بينهم ؛ لا يجوز له أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، وكم يقع بين الإخوان تهاجر يدوم سنوات يقوّيه الشيطان في نفوسهم عند أمر تافه ، وأمر حقير لا يؤبه به فيمضون على التدابر ، وربما انسحب هذا التدابر على الذرية .

" ولا يبيع بعضكم على بيع بعض " : هذا أيضاً من الأمور التي توجد العداوة والبغضاء بين المسلمين ، وهذا له صور كثيرة ؛ مثل لو أن شخصاً اشترى سلعةً ودفع ثمنها واستلمها ، ثم رآها في يده آخرٌ وقال : بكم اشتريتها ؟ قال بخمسين ؛ فقال له : رجعها وأنا أبيعها لك بأربعين أو رجعها وأنا أشتري لك بنفس الثمن أحسن منها ؛ فهذا بيعٌ على بيع أخيه . فإذا مضت المعاملة بهذه الطريقة بين الناس وُجد التعادي ، وأصبح كل يكيد للآخر ، ويحدث شر بين أصحاب المحلات التجارية إذا أخلُّوا بهذه الخصلة حدث بينهم شرٌ وعدوان لا يعلم به إلا الله سبحانه وتعالى وتجد التاجر يكيد للآخر .. ؛ ولهذا وضع النبي ﷺ مثل هذه القواعد والأصول والضوابط حتى تقطع دابر العداوات والبغضاء والشر بين المسلمين .

قال " وكونوا عباد الله إخواناً " : وهذا الأصل الجامع لجميع ذلك ؛ يعني لما ذكر تلك الأمثلة لأمر نهي عنها عليه الصلاة والسلام لأن وجودها تؤثر في الأخوة ؛ ذكر الأصل لهذا الباب وهو تحقيق الأخوة الإيمانية ؛ أي ليحقق كلٌ منكم مع إخوانه ما تقتضيه هذه الأخوة ، فمن لم يحقق ماتقتضيه الأخوة فإن أخوته تضعف بحسب ذلك ، ولهذا الأخوة الإيمانية تزيد وتنقص وتقوى وتضعف بحسب حال المسلم مع هذه الخصال ، فإن كان محققاً بما أمر به في الشرع فهذا من علامة كمال أخوته الإيمانية ، وإذا قصّر في ذلك فهذا من علامات ضعفها ونقصها .

قال " المسلم أخو المسلم " : أي أن الإسلام يوجد تآخي بين أهله وألفة بين أهله ، وإخوة الإسلام هي أعظم أخوة وهي أقوى من أخوة النسب في أثرها الديني والأخروي . " المسلم أخو المسلم " أي يجمعه به أخوة الإسلام والتآخي في الله جل وعلا ، وأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله .

قال " لا يظلمه " : لا يقع من المسلم المحقق لإسلامه المتمم له لا يقع منه ظلم لأخيه المسلم ، والمراد بالمسلم هنا المسلم الذي كَمَلَ إسلامه - ومَرَّ معنا سابقاً : " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " - .

" لا يظلمه " فإذا ظلمه فظلمه له من نقص إسلامه وضعف دينه ، " لا يظلمه " لا يقع منه ظلم له لا في شخصه ولا في ماله ولا في عرضه .

والظلم يتناول أموراً كثيرة وهو وضع الشيء في غير موضعه ، كالإساءة للآخرين والاعتداء على الأموال أو الأعراض أو على الدماء أو على الحقوق أو غير ذلك . فهذا كله داخل في الظلم ، والظلم ظلمات يوم القيامة .

قال " ولا يخذله " : خذلان المسلم لأخيه من ضعف الإسلام ونقص الدين . والخذلان هو أن لا ينصر أخاه و لا يعينه حيث يكون قادراً على نصرته ؛ كأن ينتهك عرض أخيه في مجلسه ، ثم لا ينصره في ذلك ولا يدب عنه فهذا من خذلانه لأخيه ؛ والمسلم لا يخذل أخاه المسلم ؛ بل يقوم بما يقتضيه الإسلام وتقتضيه الأخوة الدينية بالانتصار لأخيك والدب عن عرضه .

قال " ولا يكذبه " : المسلم يتجنب التعامل بالكذب مع أخيه ومعاملته بغير الصدق ، ولا يعامله بمعاملة فيها كذب وهو مؤتمنه على ذلك وواثق به لدينه أو لصلاحه .

قال " ولا يحقره " : أي ينتقص من أخيه ويزدري أخاه ويُحَقِّر من شأنه ويقع فيه ذماً أو انتقاصاً ، وكون الإنسان يحقر أخاه الإنسان ؛ هذا مبني على كبر في الإنسان وهذا أيضاً من نقص في الإيمان وضعف في الدين .

قال " التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات " : تأكيداً للأمر .

ومراد به بالتقوى هاهنا أي أن التقوى مكانها القلب

وقد مر معنا عند المصنف رحمه الله تعالى حديثان يفيدان ذلك ؛ وهما قوله عليه الصلاة والسلام " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " وقوله عليه الصلاة والسلام " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .. " ومضت الإشارة أن أساس التقوى وأساس الفجور القلب .

قوله " التقوى ها هنا " وكم من مرة ضرب إنسان على صدره وقال التقوى هاهنا معملاً الحديث على غير بابه ؟!

يُقال لبعضهم لماذا ترتكب كذا من المعاصي فيضرب على صدره ويقول التقوى هاهنا أو يقول : العبرة بالقلب !

فمثل هؤلاء لم يفهموا الحديث ، ولم يفهموا مقصود النبي ﷺ بقوله "التقوى هاهنا" ، وإلا لو قرأوا الحديث بتمامه : "لا تحاسدوا لا تناجشوا لا تدابروا .. إلى آخره " لمّا نهي عن هذه الخصال الذميمة وبيّن منافاتها للأخوة الإيمانية ؛ أشار إلى منبع الصلاح في هذه الأمور كلها وقال "التقوى هاهنا" ، فإذا كان الإنسان يبيع على بيع أخيه أو يقع في النجش ويقال له : لماذا تمارس هذا العمل المحرم ؟ قال : التقوى هاهنا ! لو قيل له : اتق الله لماذا تفعل هذا الأمر المحرم المنهي عنه ؟ قال : التقوى هاهنا ! يظلم أخاه في دمه أو ماله أو عرضه وإذا نُهي عن ذلك ضرب على صدره وقال : التقوى هاهنا ! هل هذا فهم الحديث ؟ لا .

مراد النبي ﷺ بقوله "التقوى هاهنا" : أي مكانة القلب وعظم أثره على الجوارح إذا صلح بتقوى الله ، وأن تقوى الله عز وجل إذا عُمر به القلب الجوارح تصلح ، فالذي يتق الله حقاً لا يقع في هذه الأعمال المنهي عنها ، ولا يقع في غيرها لصلاح قلبه بالتقوى ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" . فإذا صلح القلب بالتقوى صلحت الجوارح تبعاً له ، وإذا فسد القلب بالفجور والعياذ بالله فسدت الجوارح تبعاً له ، ولهذا لا يستقيم أبداً أن يغالط الإنسان نفسه فيبقى على المعصية والإثم وإذا نُهي عن ذلك قال التقوى هاهنا ، وبعضهم يقول : الكلام على القلب ، وبعضهم يبالغ ويقول : الحمد لله أنا قلبي أبيض!

وهذه تزكية مخالفة لقوله تعالى { فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى } لا تزكي نفسك لكن عليك أن تسعى في صلاح نفسك ؛ في صلاح قلبك وفي صلاح جوارحك ، أما أن تغشى المنكرات وتفعل المحرمات ثم مع ذلك تقول : التقوى هاهنا وأنا قلبي طيب ؟ هذه مغالطة لنفسك وتزكية لنفسك تضر بك ، ولها أثرٌ سيئ على الإنسان لأنه سيبقى مستمراً في المنكرات وهو لا يزال متوهماً صلاح وسلامة قلبه .

ولهذا فإن قوله عليه الصلاة والسلام "التقوى هاهنا" ويشير إلى صدره فيه التنبيه إلى أهمية إصلاح القلوب وأن صلاح الإنسان بهذه الأمور المذكورة في الحديث وفي غيرها راجعٌ إلى صلاح القلب ، وأن ما يقع من الإنسان من فساد سببه ما يقع في القلب من فساد ، وكلما قويّ الصلاح في القلب صلحت الجوارح تبعاً ..

قال " بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " : أي يكفيه فعلاً للشر وارتكاباً له أن يكون بهذه الحال أي أن يحقر أخاه المسلم ، أن يكون بهذه الصفة الذميمة بأن يزدريه أو ينتقصه .. قال " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " : وهذه قاعدة جامعة في الباب . وهذا المعنى قرره عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع أكثر من مرة ، في يوم عرفة وفي يوم النحر ؛ قال عليه الصلاة والسلام " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم " وقرر هذا المعنى في حجة الوداع بلفظة أخرى ؛ قال عليه الصلاة والسلام " ألا إنما هن أربع لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا " فقولوه :

" لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق " : نهي عن الاعتداء بالدماء .
" ولا تزنوا " : نهي عن الاعتداء على الأعراض .
" ولا تسرقوا " : نهي عن الاعتداء على الأموال ؛ وهو نصير قوله " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم " .
فهذه أمور محرمة على المسلم أن يعتدي بأي نوع من الاعتداء على مال أخيه أو على دم أخيه أو على عرض أخيه ، والأخوة الإسلامية تقتضي بُعد المسلم عن ذلك تمام البعد ، وأن لا يعتدي على أحد من إخوانه لا في دمه ولا في ماله ولا في عرضه .
قال " وكل المسلم " : اتبه لقوله " وكل المسلم " أي بما يشمل هذه اللفظة ، المسلم يتناول جميع حقوقه ، وجميع الاعتبارات التي يجب أن تُرعى وتُحفظ له .
هذا الحديث العظيم من أجمع الأحاديث في مقتضيات الأخوة الإيمانية وموجباتها ، وقد حذر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث من خصال عديدة ؛ فعل الإنسان لها وارتكابه لها نقصٌ في أُخُوَّتِهِ الإيمانية .

قال الشيخ عبد المحسن العباد

[الأول : قوله " لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض الحسدُ يكون في الأمور الدنيوية والأخروية، ويدخل تحته كراهة الحاسد النعمة التي أنعم الله بها على غيره، ويدخل فيه تمّتي زوال هذه النعمة عنه، وسواء تمّتي انتقالها إليه أو عدم انتقالها،

وَأَمَّا إِذَا تَمَنَّى مِثْلَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ دُونَ كِرَاهِيَةِ حَصُولِهَا لِغَيْرِهِ، وَدُونَ تَمَنِّي زَوَالِهَا عَنْهُ، فَهَذَا هُوَ الْغِبْطَةُ، وَلَيْسَ بِمَذْمُومٍ [.

الشرح..

هذا فيه توضيح لمعنى الحسد وبيان لحقيقته ، وأن الحسد يدخل فيه أمران :

الأول : كراهة الحاسد النعمة التي أنعم الله بها على غيره ، وهذا المعنى نص عليه عدد من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية .

فالكراهة وإن لم يكن معها تمنى زوال النعمة نوع من الحسد .

الأمر الثاني : تمنى زوال هذه النعمة ؛ فهذا حسد - سواءً تمنى انتقالها إلى أو بانتقالها إلى غيره - .

[وَالتَّجَشُّ: أَنْ يَزِيدَ فِي ثَمَنِ السِّلْعَةِ عِنْدَ الْمُنَادَاةِ عَلَيْهَا، وَهُوَ لَا يَرِيدُ شَرَاءَهَا، بَلْ يَرِيدُ نَفْعَ الْبَائِعِ بِزِيَادَةِ الثَّمَنِ لَهُ، أَوْ الْإِضْرَارَ بِالْمُشْتَرِي بِزِيَادَةِ الثَّمَنِ عَلَيْهِ، وَالتَّبَاغُضُ هُوَ تَعَاظِي أَسْبَابِ الْبَغْضَاءِ وَالْإِتْيَانِ بِمَا يَجْلِبُهَا، وَالتَّدَابُرُ الْمَقَاطَعَةُ وَالتَّهَاجُرُ؛ فَلَا يَجِبُ أَنْ يَلْقَى أَخَاهُ بَلْ يُوَلِّي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُبْرَهُ بِسَبَبِ مَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا مِنْ تَبَاغُضٍ، وَالْبَيْعُ عَلَى بَيْعٍ غَيْرِهِ أَنْ يَتْبَاعِ اثْنَانِ سِلْعَةً وَهُمَا فِي مَدَّةِ الْخِيَارِ، فَيَأْتِي آخَرُ إِلَى الْمُشْتَرِي فَيَقُولُ لَهُ : أَتَرَكَ هَذِهِ السِّلْعَةَ وَأَنَا أَبِيعُكَ سِلْعَةً مِثْلَهَا أَوْ أَحْسَنَ مِنْهَا بِثَمَنِ أَرْخَصَ مِمَّا اشْتَرَيْتَ بِهِ ، وَهَذَا الْعَمَلُ يَسَبِّبُ التَّبَاغُضَ .

ثانياً : قوله: " وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ " بعد نهيته صلى الله عليه وسلم عن أمور محرمة، فيها التباغض بين المسلمين وتعاطي أسبابه، أرشد صلى الله عليه وسلم إلى ما هو

مطلوب من المسلمين أن يكونوا عليه، وهو أن يكونوا إخوة متحابين متآلفين، يرفق بعضهم ببعض، ويحسن بعضهم إلى بعض، بإيصال النفع إليه ودفع الضرر عنه ، وأكد ذلك بقوله : " المسلم أخو المسلم " أي: أن مقتضى الأخوة أن يحبَّ لغيره ما يحبُّ لنفسه ويكره له ما يكره لها، فلا يظلم غيره بأن يعتدي عليه أو يلحق أيَّ ضرر به ، ولا يخذله عند حاجته إلى نصرته وهو قادر على أن ينصره ، ولا يحدِّثه بحديث هو كاذب فيه ، ولا يحقره بأن يستهين به

ويستصغره ، ثم بيّن صلى الله عليه وسلم قبح احتقار المسلم أخاه بقوله : " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " أي: يكفيه من الشر احتقار أخيه لو لم يكن عنده شرٌ غيره، ووسّط صلى الله عليه وسلم بين النهي عن الاحتقار وبين عظم شرّه قوله صلى الله عليه وسلم " التقوى هاهنا " مشيراً إلى صدره ثلاث مرّات ، أي إلى القلب ؛ لبيان أنّ العبرة بما يقوم في القلوب من الإيمان والتقوى ، وأنّه قد يكون قلبٌ من احتقر معموراً بالتقوى ، ويكون قلبٌ من احتقره وتكبّر عليه بخلاف ذلك ، وأمّا ما يقوله بعضٌ من يقع في المعاصي الظاهرة إذا نبّه على شيء منها أشار إلى صدره، وقال : " التقوى هاهنا " فيقال له: إنّ التقوى إذا صارت في القلب ظهر أثرها على الجوارح بالاستقامة وترك المعصية، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ وإذا فسدت فسد الجسد كلّهُ ، ألا وهي القلب " ، وقال : " إنّ الله لا ينظر إلى صوَرِكُمْ وأموالِكُمْ، ولكن ينظر إلى قلوبِكُمْ وأعمالِكُمْ " رواه مسلم ، وجاء عن بعض السلف أنّه قال : " ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما قر في القلوب وصدّقته الأعمال " .

الشرح..

قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث " ولا يحقره " ثم بعد ذلك قال " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " يعني آخر ما ذكر في الأمور التي ينهى عنها قوله " ولا يحقره " ثم بعد ذلك قال " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " أي يكفيه شراً أن تكون فيه هذه الخصلة أن يحقر أخاه المسلم ؛ وهنا نكتة جميلة وفائدة نفيسة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم قوله " التقوى هاهنا " بين قوله عليه الصلاة والسلام " ولا يحقره " وقوله " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " ؛ فوسّط عليه الصلاة والسلام بين نهي أن يحقر أخاه المسلم ، وبين عظم شأن من كان كذلك بقوله " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " وسّط بين ذلك بقوله " التقوى هاهنا " ؛ وهنا فيه تنبيه لمن يحقر أخاه المسلم إلى أن هذا الذي تحقره قد يكون قام في قلبه من التقوى والصلاح وزكاء القلب أمراً لا تدانيه ولا تقاربه ، فقد تحقره وتنتقصه وتزدريه وهو عند الله عظيم ، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام " رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب " ما معنى " مدفوع بالأبواب " يعني لا يأبه الناسُ به وإذا لقوه عند أبواب دفعوه ، " ذي طمرين " يعني ثيابه بالية لو أقسم على الله لأبره ؛ أي أن له مكانة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى .

فقوله " التقوى هاهنا " فيه تنبيه عظيم في هذا الباب ؛ لا تحتقر أخاك المسلم ، وأحياناً بعض الناس - والعياذ بالله - يحتقر الآخر لمظهره ، أو لشيء في خلقته إما عرج أو عور أو شيء من هذا القبيل أو نقص في بعض الصحة أو عدم إفصاح في الكلام و العبارة أو غير ذلك من أمور قد يحقره ويرى نفسه أعلى منه ويزدرية وينتقصه ؛ فيقول عليه الصلاة والسلام " التقوى ها هنا " .

فهذا تنبيه مهم في هذا الباب ؛ إذا أدرك المسلم أن التقوى مكانها القلب لماذا يزدرى أخاه المسلم ؟ قد يزدرية وهو عند الله عظيم وله رتبة عالية في الجنة ؛ فلماذا يزدرية ؛ ولهذا قال "التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" فلو لم يكن فيه شر إلا هذه الخصلة كفى به شراً ؛ لأنه قد يحتقر شخصاً أو أشخاصاً لهم مكانة رفيعة وعلية عند الله سبحانه وتعالى .

[ثالثاً : قوله: "كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه" : يحرم الاعتداء على النفس بالقتل أو ما دونه، والاعتداء على المال بالسرقة والغصب وغير ذلك، والاعتداء على العرض بالسبِّ والشتم والغيبة والنميمة وغير ذلك، وقد أكَّد النبي ﷺ تحريم هذه الثلاثة في حجة الوداع، قارناً حرمتها بجرمة الزمان والمكان، حيث قال ﷺ " إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا".

الشرح..

هذا الذي ختم به عليه الصلاة والسلام الحديث وهو قوله "كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" يُعد قاعدة عظيمة ومتينة في هذا الباب وجامعة، وأن الواجب على المسلم تجاه إخوانه المسلمين أن يحترم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ؛ فلا يعتدي على شيء منها بأي شيء من الاعتداء ؛ هذه قاعدة جامعة في هذا الباب ، وأن الأخوة الإيمانية تقتضي احترام المسلم لأخيه المسلم في دمه وماله وعرضه ، فلا يعتدي على دمه بإراقته ولا أيضاً في عرضه سواء بانتهاك العرض بالفحش والقذف أو غير ذلك من أنواع الاعتداء على الأعراض ، ولا يعتدي على أموال الآخرين بالسلب والنهب والسرقة فهذا كله حرام والمسلم محترم في نفسه وماله وعرضه فلا يعتدى على شيء من ذلك..

[رابعاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : تحريم التحاسد والتناجش والبيع على بيع أخيه، وكذا الشراء على شرائه، وكذا كل ما يجلب العداوة والبغضاء بين المسلمين.

أي أن هذا الحديث ذكر أمثلة وإلا فإن كل أمر يجلب العداوة ويوجد البغضاء بين المسلمين فإنه يحرم على المسلم فعله لعموم قوله في هذا الحديث " ولا تباغضوا " .

ثانياً : النهي عن تعاطي أسباب البغضاء، وكذا كل ما يترتب على ذلك من تقاطع وتهاجر بين المسلمين.

ثالثاً : حث المسلمين جميعاً على أن يكونوا إخوة متحابين متآلفين.

هذا مستفاد من قوله : " وكونوا عباد الله إخوانا " هذا فيه حث على أن يكون المسلمين متحابين متآلفين متحابين

رابعاً : أن الأخوة بين المسلمين تقتضي إيصال الخير إليهم ودفع الضرر عنهم.
خامساً : أنه يحرم على المسلم لأخيه ظلمه وخذلانه واحتقاره والكذب عليه.

سادساً : بيان خطورة احتقار المسلم لأخيه، وأن ذلك كافٍ للمحتقر من الشر، وإن لم يكن عنده شرٌّ سواه.

يعني لو لم يكن فيه من الشر إلا هذه الخصلة أن يحقر أخاه المسلم فكفى به شراً أن يكون بهذه الصفة

سابعاً : أن الميزان في التفاضل بين الناس التقوى، كما قال الله عز وجل: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } .

ثامناً : أن التقوى محلها القلب، كما في هذا الحديث، وكما في قوله تعالى: { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } .

تاسعاً : أن التقوى في القلوب تظهر آثارها على الجوارح وبصلاح القلوب يصلح بقية

الجسد.

عاشراً : تحريم الاعتداء على المسلمين في دمائهم وأموالهم وأعراضهم] .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*